سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى : بتقدير أجل مسمى وهو يوم القيامة.

إن دراسة الكون تدلنا على أن هناك حكمةً ومعنىً يسودان كل ناحيةٍ من نواحيه ، إذن فإن مصنعاً كهذا ، الذي ينطوي منذ بدايته على قصدٍ ومعنىً ، تُرى هل يمكن أن يعود في نهايته عبثاً محضاً بلا معنىً ؟! كلا .. كلا .. الحق في ذاته شيء محكم للغاية. إنه أعظم قوةٍ في هذا الوجود ، ومع ذلك فما السر في أن الحق إذا ما تم عرضه على الناس ، تلقاه أكثرهم بالرفض والإنكار؟

السر في ذلك أن الناس إنما يساق إليهم الحق في عالمنا الراهن في صيغة الخبر ، وأما في الآخرة فسوف يستحيل الحق واقعاً يفرض نفسه على الناس فرضاً ، وعندئذ سيخر أمام الحق هناك في خضوعٍ واستسلام حتى أولئك الذين كانوا قبلئذٍ يقابلون الحق بالإهمال والإعراض باعتباره غير ذي أهميةٍ أو قيمةٍ تذكر !!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟

بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٥﴾

أَرَأَيْتُم : أخبروني .

لَهُمْ شِرْكٌ : شركة ونصيب مع الله تعالى .

أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ : بقية من علم عندكم .

في تفسير قوله : ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ، قال ابن كثير : "أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك" (١).

العلم في الحقيقة نوعان : أحدهما : العلم الموحى أو الملهَم (Revealed knowledge)، وهو الذي وصل إلى الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين . وثانيهما : العلم الثابت أو المبرهن عليه (Established knowledge) ، وهو الذي يكون قد ثبت كونه علماً عن طريق الأبحاث والتجارب الإنسانية ، وأي واحدٍ من هذين العلمين لا يدل على أن هناك موجوداً آخر في هذا الكون ، غير الله الواحد الأحد .

وإذا لم يكن أي مصدرٍ من مصدري العلم النقلي والعقلي شاهداً على الشرك ، فكيف إذن ، يجوز للإنسان أن يشرك بالله شيئاً اعتقاداً أو عملاً ؟!، والحق أن كل شيءٍ يتخذه المرء سنداً له وموضع ثقته من دون الله سيتبرأ منه يوم القيامة ، ولن يمده بنصرٍ أومعونةٍ ما ، وهو أحوج ما يكون إلى النصر والمعونة يومئذٍ!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥ .

تُفِيضُونَ فِيهِ : تندفعون فيه طعنا وتكذيبا .

لقد كان المخاطبون الأولون للقرآن الكريم من العرب يرفضون دعوة القرآن زاعمين أنها لا تتفق مع دين أكابرهم ، ولم تكد الجماهير تسمع ذلك ، وقد رسخت في عقولها الساذجة عظمة الأكابر وقداستهم ، حتى تنفر من رسالة القرآن،غير أن القرآن كان ينطوي على جانبٍ آخر،وهو إعجازه الأدبي، حيث كان كل عارفٍ بلسان العرب يشعر في قرارة نفسه بأن هذا كلام غير عاديٍ،وللتهوين من شأن القرآن وتقليل أهميته من هذه الناحية الثانية،لم يلبث قادة الكفر والضلال أن قالوا: إن هذا سحرٌ مبين .

صحيح أن كلام بعض الناس يتميز بروعةٍ بيانية فائقة وبلاغة غير عادية لا تدانى ، ولكن بلاغة الكلام الإنساني تقف عند حدٍ لا تتجاوزه، أما بلاغة القرآن وإعجازه الأدبي فهما أبعد من هذا الحد بكثيرٍ ، بل ليس هنالك من حدٍ يقفان عنده، إن عظمة القرآن الأدبية أجل من أن تُعد من نتاج العقل الإنساني القاصر المحدود .

وعندما يأبى الطرف المقابل إلا الإصرار على العناد والمكابرة ، فإن الإنسان الجاد لا يسعه عندئذٍ سوى أن يلوذ بالصمت قائلاً بأن أمري وأمرك إلى الله ، وكفى به شهيداً بيني وبينك ، بيد أن هذا ليس بالتراجع أو الانسحاب ، وإنما هو تدبير إقدامي أو هجوم خلقي إن صح هذا التعبير ، فحين يلزم المرء الصمت أمام رجلٍ عنيدٍ مكابرٍ ، فإنه يوقفه بين يدي ضميره هو بإبعاد نفسه عن مواجهته ، حتى يستيقظ شعوره إن لم يكن قد فتر وخمد خموداً نهائياً !

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

بِدْعاً : بديعا منفردا فيما جئت به .

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني ماذا حالكم .

كان اليهود عند مشركي مكة حاملين لعلوم الدين ، وقد كان هؤلاء يعتبرونهم شعب الأنبياء والرسل ، كما كان المشركون واليهود يلتقي بعضهم ببعض أثناء الرحلات التجارية . وفي خلال العهد المكي سأل بعض المشركين بعض اليهود عن النبي ، فأجاب أحد الأحبار قائلاً : إن هناك نبياً كان سيُبعث في هذه المنطقة حسب النصوص الواردة في كتبنا. وغير بعيد أن يكون هذا هو ذلك النبي المرتقب. وقد أقر هذا الحبر اليهودي بنبوته - عليه الصلاة والسلام - على نحوٍ غير مباشرٍ .

وكان التاريخ يشهد - من ناحية - بأن أنبياء الله يأتون بكتابٍ من عند الله ، ومن ناحيةٍ أخرى كان مكتوباً في الصحفّ السماوية السابقة أن نبياً سوف يُبعث من بني إسماعيل، هذا إلى جانب كون كلام الرسول - ﷺ- وحياته منطويتين على كل العلامات بوضوحٍ ، تلك التي لا توجد إلا في أشخاص الأنبياء والمرسلين وحدهم ، وبالرغم من توافر هذه العلامات والقرائن الصارخة ، فإن الذين كانوا ينكرون رسالة النبي العربي- ﷺ - لم يكونوا يفعلون ذلك لأي سببٍ معقولٍ ، وإنما فعلوا ذلك حفاظاً على كبريائهم وسيادتهم التي بدا لهم أنها ستنهار فيما لو آمنوا بشخصٍ مازالوا يعدونه رجلاً عادياً ، على أنه نبيٍ مرسل من عند الله!. والشأن أن الذين يصل بهم الأمر إلى حيث يستبد بهم الغرور وتتملكهم نفسية الاستكبار إذا ما ظهر الحق أمامهم ، فإن عقولهم تقودهم دائماً نحو الاتجاه الخاطئ المعوج ، ولا تتجه بهم الوجهة الصحيحة القويمة أبداً .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

إِفْكٌ قَدِيمٌ : كذب متقادم .

إن الذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله - ﷺ- وبادروا بالانضواء تحت رايته ، كان من بينهم أناس ينتمون إلى طبقة الضعفاء والعبيد ، مثل: بلال، وعمار، وصهيب ، وخباب وغيرهم ، كما كان فيهم - إلى جانب هؤلاء - أفراد ينتمون إلى الأسر الشريفة ، مثل : أبي بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب .. إلخ .. غير أن خصومه - عليه الصلاة والسلام - إنما كانوا يذكرون الصنف الأول من أتباعه وحده، ولم يكونوا يتناولون بالذكر الصنف الأخير . ومرجع ذلك إلى أن المرء إذا امتلأ بمشاعر الحقد والعناد والمكابرة نحو أحدٍ ، فإنه يصير بالنسبة إليه أحادي الجانب ، بحيث يصرف نظره عما فيه من جوانب الخير ، ولا يتناول بالذكر سوى الجوانب التي يمكن أن يتخذها ذريعةً إلى تحقيره والتهوين من شأنه .

هكذا فقد كان واقعاً لا مرية فيه أن رسول الله - ﷺ - إنما جاء بما جاء به سائر الأنبياء والرسل السابقين من ذي قبل ، فقد جاء - عليه الصلاة والسلام - بصدقٍ أزلي أبدي ، وقد كان في إمكان خصومه أن يصفوا هذا الواقع بأن : "هذا صدق قديم" ، ولكنهم وصفوه ، بدلاً من ذلك ، بقولهم : ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ، وهذا النوع من الجور وعدم الإنصاف كان لدى البشر في قديم الزمان ، وهو لم يزل يوجد في الناس اليوم كذلك!!

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝

من دلائل صدق القرآن الكريم أن الكتب السماوية السابقة قد ظلت تتنبأ به قرناً بعد قرنٍ ، ولا زالت هذه النبوءات موجودةً في التوراة والإنجيل حتى هذا اليوم، وهكذا جاء القرآن مصداقاً ومصدقاً لكل ما سبق بشأنه من البشائر والنبوءات السماوية، وهذا قرينة واضحة تبرهن على أن القرآن كتاب إلهي في واقع الأمر ، ولولا ذلك لما أمكن التنبؤ به على هذا النحو الدقيق قبل نزوله بمئات بل آلاف السنين، وفي شرح قوله : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ روي عن عبد الله بن عباس ما معناه : ثم استقاموا على أداء فرائضه.

إن الإيمان عهد مقدس ، وفي أثناء حياته يمر المرء من حينٍ لآخر بمواقف يجد نفسه فيها بين خيارين : أحدهما يتفق مع عهد إيمانه ، والآخر يتعارض معه ، فمن أخذ نفسه في مواقف كهذه بالعمل وفق عهد إيمانه ، فقد أثبت الاستقامة ، وأما من عجز عن أن يعمل في تلك اللحظات الحاسمة بمقتضى عهد إيمانه ، فقد فشل في إثبات الاستقامة، إن الذين لا يقيمون الدليل على الاستقامة ، هم الظالمون ، ولن يغني دعواهم الإيمانَ عنهم شيئاً ، وأما الذين أقاموا الدليل على الاستقامة فأولئك هم الذين سيتم إسكانهم في الجنان الأبدية !!

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ : أمرناه وألزمناه .

كُرْهاً : ذات كره ومشقة .

وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ :مدة حمله وفطامه من الرضاع .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : بلغ كمال قوته وعقله .

رَبِّ أَوْزِعْنِي : ألهمني ووفقني ورغبني .

أسلوب التناسل البشري باختصارٍ هو أن الإنسان يستمد وجوده عن طريق أمٍ وأبٍ، ثم إنهما يقومان بعد ذلك بتنشئته ورعايته حتى يكبر ويقوم على رجليه،وكأن هذا نظام فطري لتربية الإنسان، والحكمة منه أن يتولد في نفس الإنسان هكذا شعوره بما له من حقوقٍ وما عليه من واجباتٍ، وأن تستيقظ في داخله العاطفة القائلة بأن عليه أن يشكر لوليّ نعمته ويؤدي حقه عليه ، وهذه العاطفة كما تُعلِّم الإنسان القيام بتأدية حقوق الآخرين من بني نوعه ، تعلمه كذلك الوفاء بحقوق الله خالقه ومالكه العظيم ، والذين يتلقون الدرس من معلم الفطرة ، ويوقظون بالتالي شعورهم ووعيهم لدرجة تجعلهم يتعرفون على حقوق الكل ، فيقومون بأدائها خير قيامٍ ، أولئك هم الذين يُعتبرون في الآخرة أهلاً لرحمات الله الأبدية !

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

أُفٍّ لَّكُمَا : كلمة تضجر وتبرم وكراهية .

أَنْ أُخْرَجَ : أبعث من القبر بعد الموت .

خَلَتِ الْقُرُونُ : مضت الأمم ولم تبعث .

وَيْلَكَ : هلكت والمراد حثه على الإيمان .

آمِنْ : صدق بالله وبالبعث .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم .

حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : وجب عليهم وعيد العذاب .

قَدْ خَلَتْ : مضت وتقدمت .

الولد البار المطيع لوالديه يكون بالطبع مطيعاً لله سبحانه وتعالى كذلك ، وأما الولد العاق فلا يكاد يبلغ أشده حتى ينسى أو يتناسى أن والديه قد تحملا ما لا يُحصى من المتاعب والآلام والمشقات حتى أوصلاه إلى ما هو عليه اليوم.

وإنه ليس هنالك أحد أنصح للمرء من أبويه ، وإن مشورة الأبوين التي يقدمانها إلى أولادهما تكون نابعةً من النصح الخالص ، بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، ولذا فينبغي للإنسان أن يُعنى بمشورة أبويه الصالحين أشد العناية وأوفاها، وأما الشخص الذي ينهر أبويه الصالحين استخفافاً بمشورتهما ، فإنه يُبدي بسلوكه هذا أنه إنسان قاسي القلب إلى أقصى حدود القسوة ، وهؤلاء هم الذين سيلقون في نهاية المطاف خسراناً ما بعده خسران!

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

عَذَابَ الْهُونِ : الهوان والذل .

إن الحق إذْ يتجلى أمام شخصٍ ما ، وهو لا يختاره لأجل المصلحة الدنيوية والمنفعة المادية ، فيكون معنى ذلك أنه أعطى الأهمية للدنيا بالقياس إلى الآخرة ، وأنه فضل لنفسه طيبات الدنيا على طيبات الآخرة، وهكذا الشعور بكبرياء ذاته هو الآخر شيء ألذ ما يكون عند المرء ، وحين يقتضي الحق أن يتقبله المرء على حساب كبريائه ، وهو لا يتلقاه بالقبول حفاظاً على كبريائه ، فكأنما هو يؤثر طيبات الدنيا متخلياً عن طيبات الآخرة باعتبارها تافهةً لا تستحق أن يعيرها جانب اهتمامٍ .

وفي الآخرة سيتعرض لعذاب الذلة والهوان كل أولئك الذين أهملوا طيبات الآخرة لأجل طيبات الدنيا على هذا النحو ، وإنما سينال الكل جزاءه هناك بحسب عمله في هذه الدنيا قل أو كثر ، خيراً كان أو شراً !

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أَخَا عَادٍ : هوداً عليه السلام .

بِالأَحْقَافِ : واد بين عمان وأرض مهرة .

لِتَأْفِكَنَا : لتصرفنا ، أو لتزيلنا بالإفك .

كانت مساكن عاد بجنوب الجزيرة العربية في تلك المنطقة التي تعرف اليوم بالربع

الخالي ، لقد قطع هذا الشعب أشواطاً شاسعةً في ميدان الرقي والتقدم ، غير أن رقيه لم يلبث أن أصابه بالغفلة والبطر والطغيان ، فبعث الله من بين أبنائه هوداً لكي يبلغه رسالة ربه ، وقام هود يدعو قومه إلى الله ويحذُرهم بأسه ونقمته ، إلا أنهم لم يرضوا بقبول الإصلاح ، وقد استقبلوا نبيهم بجهالةٍ وسوء أدبٍ ، إلى أن تعرضوا لبطش الله ، حيث أخذهم عذاب شديد لدرجة أن مناطقهم الخصبة العامرة لم تلبث أن تحولت إلى صحراء قاحلة مجدبة!!

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

عَارِضاً : سحابا يعرض فى الأفق .

تُدَمِّرُ : تهلك .

عندما رأى قوم عاد سحاب العذاب يزحف نحو أوديتهم ظنوه سحاب المطر العادي، ولم يتمكنوا من إدراك حقيقته إلا بعد أن فوجئوا بعاصفة العذاب وقد دخلت مسكانهم تدمر كل شيءٍ تدميراً .. آه ! ما أظلم هذا الإنسان وأعتاه !! حيث إنه لا يعترف بالحق حتى قبل تعرضه للهلاك بلحظةٍ واحدةٍ ، وإنه لا يكاد يتقدم للاعتراف إلا حين يكون أوان الاعتراف قد فات!.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ

وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

مَكَّنَّاهُمْ : أقدرناهم وبسطنا لهم .

فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ : في الذي ما مكناكم فيه .

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ : فما دفع عنهم .

وَحَاقَ بِهِم : أحاط أو نزل بهم .

وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ : كررنا بأساليب مختلفة .

قُرْبَاناً آلِهَةً : متقربا بهم إلى الله .

إِفْكُهُمْ : أثر كذبهم في اتخاذها آلهة .

يَفْتَرُونَ : يختلقونه في قولهم إنها آلهة .

إن المكانة الدنيوية التي كان يتمتع بها سادة قريش جعلت منهم طغاةً متمردين ، فجاء القرآن يصرف أنظارهم إلى قوم عاد المجاورين لهم ، والذين كانوا من الناحية التمدنية، على درجةٍ أعلى وأكبر منهم بكثيرٍ ، ولكن عندما جاء القضاء الإلهي لم تلبث مظاهر عظمتهم وأمجادهم كلها أن صارت هباءً ، ولم يعد ينجدهم من بأس الله أي شيءٍ من تلك الأشياء التي كانوا قد وضعوا ثقتهم فيها معتبرين إياها سنداً لهم .

وإن الإنسان وإن كان سيصير آخر الأمر صغيراً بإزاء الله ، إلا أن نظام دنيانا قد أنشئ على نحو يضطر المرء بين الحين والحين إلى أن يصغر أمام الآخرين في عالمنا الراهن، وإن وقائع كهذه آيات الله ، ولو تأمل المرء هذه الآيات واعتبر بها لتناول نفسه بالتصغير هنا قبل أن يصغّر في اليوم الآخر ، وعاد واقعياً في هذه الدنيا ذاتها قبل

الآخرة . إن هناك أنواعاً شتى من الحوادث والواقعات تتجلى أمام الإنسان بوصفها آيات إلهية، غير أنه يقف تجاهها موقف الأصم والأعمى ، ولا يكاد يستعد لكي يستلهم منها درساً أو عبرة !!

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَرَفْنَا إِلَيْكَ : أملنا ووجهنا نحوك .

أَنصِتُوا : اسكتوا واصغوا لنسمعه .

قُضِيَ : أتم وفرغ من قراءة القرآن .

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ : لله فائت منه بالهرب .

في العام العاشر من البعثة النبوية كانت الظروف المحيطة برسول الله - ﷺ- في مكة قد اشتدت وطأتها إلى أقصى الحدود فخرج - عليه الصلاة والسلام - إلى الطائف رجاء أن يجد بين أهلها من ينصرونه ويقفون إلى جانبه ، ولكنهم استقبلوه شر استقبالٍ ، وفي طريق عودته إلى مكة نزل بوادي النخلة، حيث قام من نومه في جوف الليل يصلي، فاستمع إليه - وهو يتلو في صلاته آيات القرآن الكريم - طائفة من الجن ، فلم يلبثوا أن آمنوا به في الحال .

إن هناك طائفة كانت ترفض القرآن أشنع الرفض ، بينما كانت طائفة أخرى في الوقت نفسه تتلقى القرآن بالقبول ، وكان قبولها للقرآن مصحوباً بحماسٍ بالغٍ واندفاعٍ شديدٍ لدرجة أنها عادت مبلغةً له منذرةً به لبني جنسها!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ : لم يتعب به أو لم يعجز عنه .

بَلَى : هو قادر على إحياء الموتى .

إن ظهور هذا الكون الهائل - الممتد أمامنا بشكل السموات والأرض - إلى حيز الوجود ، ثم سيره الدائب المتأصل بمنتهى الدقة والتوافق والانسجام منذ بلايين السنين ، مما يثبت أن خالقه يملك قوى عظيمة وطاقات جبارة . كما يدل أيضاً على أن إيجاد الكون لم يسبب له التعب أو الإعياء ، ولو كانت عملية الخلق والإيجاد قد أرهقته، لما رأينا الكون يسير بهذه الدقة المتناهية ، وإن قدرة الله وطاقاته الجبارة التي تتجلى آثارها الباهرة على مستوى الكون المنظور ، كافية في حد ذاتها للتأكد من أن إحياء النوع الإنساني بعد موته من جديدٍ ، ومحاسبته على أعماله أيسر وأهون ما يكون عليه ، فإنه على كل شيءٍ قدير.

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أُوْلُو العَزْمِ : ذوو الجد والثبات والصبر .

بَلاغٌ : هذا تبليغ من رسولنا .

الداعي إلى الحق لابد له من الارتكاز الدائم على دعامة الصبر ، والصبر في جوهره هو إعراض الداعي عن أذى المدعو وإساءاته واستمراره في إيصال الدعوة إلى المدعو رغم عناده وتعنته وإنكاره ، وكون الداعي ناصحا للمدعو على كل حالٍ ، مهما كان يعاني من جانب المدعو من ألوان المتاعب ، وهذا الصبر ضروري لأنه بدون ذلك لا تقوم حجة الله على المدعو ، وقد سار أنبياء الله ورسله العظام قاطبةً على هذا الدرب ، درب الصبر والاستقامة ، في صدد القيام بواجب الدعوة إلى الحق على اختلاف الأزمان والأماكن ...، إذن فلا بد للذين يريدون النهوض بأعباء الدعوة إلى الحق بالنيابة عن حضرات الأنبياء والمرسلين أن يتأسوا بأسوتهم هذه ، إن مقام الدعاة محجوز عند الله لأولئك الذين يستطيعون إظهار الشجاعة للصبر والتحمل .

obeikandl.com